إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الثانية – العدد الثامن – شتاء ١٣٩١ش/كانون الأول ٢٠١٢م
صص ٣٣ ـ ٥٤

الحريّة الروحيّة فی منظر میخائیل نعیمه وطرق الوصول إلیها

سردار اصلانی*

افسانه خواجه گودری**

الملخص

الحريّة من أجمل الكلمات فی القاموس البشریّ وهی بمعنی القدرة علی التصرّف بملء الإرادة والاختیار مع صیانة حقوق الناس فی الغرب، وإضافة إلی هذه تضاف حقوق اللّه والناس فی الإسلام أیضا.والحريّة ضربان: الأول منهما الحريّة الاجتماعیّة، هی أن یکون الإنسان حرّا فی تصرفاته الفردیّة والاجتماعیة؛ أی لم یکن الآخرون مانعین فی سیره نحو نموّه وأهدافه عن طریق حَبسه وإجباره أو استثماره أو استخدامه فی الأمور. أما الثانی منهما فالحريّة الروحیّة؛ فمعناها یرجع إلی نفس الإنسان بحیث أن تکون نفسه حرّة من کل القیود السلبیة الرادعة. وهناک صلة وثیقة بین الحريّة الروحیّة والحريّة الاجتماعیّة. وعندما یصل الإنسان إلی الحريّة الروحیّة فحینئذ ستحقق له الحريّة الاجتماعیّة. فی المقال هذا، ندرس آراء نعیمه حول الحريّة المثالیّة والطُرق التی سَلْکها تهدی الإنسان المفتّش عن الحريّة إلیها فی آثاره فی المنهج الوصفی ـ التحلیلی. ونحاول أن نبیّن عوائق الوصول إلیها أیضا. والهدف الرئیس لهذه الدراسة کیفیة اقتراح نعیمه للوصول إلی الحريّة.

الكلمات الدليلية: میخائیل نعیمه، الحريّة الروحیّة، المعرفة، الإیمان، الرذائل الأخلاقیة.

---

*. جامعة إصفهان، إیران. (أستاذ مساعد). Aslani@fgmui.ac.ir

**. جامعة إصفهان، إیران. (خریجة مرحلة الماجستیر).

التنقیح والمراجعة اللغویة: د. حسن شوندی

تاریخ الوصول: ١٣٩١/١٠/٩هـ. ش تاریخ القبول: ١٣٩١/١١/١هـ. ش

المقدمة

نرى فى رؤية الأدباء والعلماء والفلاسفة تقديم الحريّة بشتّى الطُرق. قد ظهر نعيمه فى العصر الذى يملأ جوّه بالدعوة إلى الحريّة، فطبيعىّ أن نراها عنده أيضا.

والحريّة هى الهدف الأسمى التى تهدفها الكائنات كلّها وفى رأسها الإنسان. وهو يستطيع الوصول إليها عن طريق الوصول إلى معرفة الإنسان نفسه، بحيث توصله إلى معرفة اللّه، وهذه المعرفة هى الإيمان بعينه، فالمعرفة والإيمان أهّم طُرق الوصول إلى الحريّة الروحيّة.

نتحدّث فى المقال هذا بعد إشارة عابرة إلى حياة نعيمه وعزلته وآثاره مع الاهتمام بمنزلته السامية، عن أسس الحريّة عنده للوصول إلى هذا المهّم وروادع الوصول إليها. فالمعرفة من أهمّ الطرق فى سبيل الحريّة الروحيّة؛ لأنّه عندما يعرف الإنسان نفسه يحررّها من كلّ القيود. وأمّا الإيمان فهو من أهمّ طرق الوصول إليها أيضا. فنرى عندما يصل الإنسان إلى الإيمان الحقيقى فهو سيحرّر من قيد سائر العبوديّات. بعد ما سبق من القول، فإن هدفنا من اختيار هذا الموضوع هو تعريف الحرية الروحيّة من منظار نعيمه وسُبل الوصول إليها وعلى إثرها مساعدة المجتمع الإنسانى فى معرفة الأزمات الفكرية والاجتماعية، ومساعدتهم للوصول إلى الحريّة الروحيّة، لأنّها مقدمة للحريّة الاجتماعية. والمحور الأساس لهذا المقال هو معرفة رؤية نعيمه عن الحريّة وأساسها عنده واكتشاف طرق الوصول إليها.

خلفيّة البحث

الحرية الروحية من أهمّ الموضوعات التى قد بحثت مرّات كثيرة. فقد دُرست آثار ميخائيل نعيمه فى بعض المواضيع، وطبعت مقالات حول أدبه؛ منها: أطروحة "صلة الأدب بالأخلاق فى آثار ميخائيل نعيمه" لعلى أحمدى نوقشت فى جامعة أصفهان بإشراف الدكتور سردار اصلانى. كما كتبت المقالات الكثيرة حول هذا الأديب وأدبه منها: «آراء ميخائيل نعيمه النقدية» لـ «حسن دادخواه، وسكينه پرهيزگارى»، "فى غربال ميخائيل نعيمه" لـ "حبيب زحلاوى"، و"مقارنة أدبية بين "العقاد" وديوانه و"ميخائيل نعيمه" و"غربااله" تأليف "قاسم مختارى، ومريم بخشنده" و"ميخائيل نعيمه

منهجــه فى النقد واتجاهه فى الأدب" لـ "بــدوى طبانه"، وأما عن الموضوع هذا فلم نعثر على بحث أو كتاب.

نبذة عن حياة ميخائيل نعيمه وآثاره الأدبية

أطــلّ ميخائيل نعيمه علــى هذا العالم فى ســنة ١٨٨٩م فى قرية بســكنتا فى لبنان. قام منذ طفولته بكســب اللغة والأدب والعلم فى شــتى الفروع. له صلة وثيقة «بنســيب عريضه» فى رأس مجلّة «الفنون» فراح نعيمه ينشر مقالات فيها، وعندئذ مال إلى جمعيّة «التيوصوفية» الفكرية الفلســفية واســتخدم هذه الآراء فى التقمــص، وميزان الثواب والعقاب والخير والشرّ. وفى سنة ١٩٢٠م أنشئت الرابطة القلمية التى من أهدافها الثورة على الجمود والتقليد والدعوة إلى الإبداع، وفى رأسها «جبران خليل جبران»، وانتخب نعيمه مستشارا لها. ويقول نعيمه فى مقدمة قانون هذه الرابطة: «إن هذه الروح الجديدة التى ترمى الخروج بأدابنا من دور الجمود والتقليد إلى دور الإبتكار فى جميل الأساليب والمعانى، الحريّة فى نظرنا بكل تنشــيط ومؤازرة، فهى أمل اليوم وركن الغد.» (خفاجى، ١٩٨٦م: ٣٩١) بعد هذه النشاطات الأدبية، اختار لنفسه صومعة فى «الشخروب» لبعده عن فوضى المدنيات. قصــده من هذه العزلة على حدّ تعبيره: «التأمّل، وغربلة الماضى، وتعريــة النفس، وفتح كوى الروح لنور الله.» (نعيمه، ج٢، ١٩٧١م: ٤٩) فهدفه من هذه العزلة سوى ما قاله نفسه هو التفكير فى حقائق الكون وتزكية النفس ومعرفة الله تعالى وهذه كلّها ما قرّبه إلى الحريّة الفردية، فلاشكّ فى أنّه رجل حرّ. وفى إثبات هذا الكلام، جدير أن نشــير إلى شــخصيته بأنّه يكــره الدنيا وظواهرها كالمال، كما يكره الحســد والبغض والطمع وغيرها من الصفات الرذيلة التى تعرقل وصول الإنسان إلى الحريّة.

وأمــا حياة نعيمه فى مجــال الأدب فهى حياة مثمرة قيمّة. له أكثر من ثلاثين مؤلفا فى شــتى فروع الأدب منها القصّة والمسرحية والأمثال والمراسلة والمقالات الأدبية والنقد الأدبى والنقد الاجتماعى الذى نراها فى ما كتبه:

١. فى فنّ المقالة: زاد المعاد (١٩٣٦م) والبيادر (١٩٤٥م) والأوثان (١٩٤٦م) وصوت العالم (١٩٤٨م) والنّور والدّيجور (١٩٥٠م) وفى مهبّ الرّيح (١٩٥٣م) ودروب (١٩٣٢م) وأبعد من موسكو ومن واشنطن (١٩٧٥م) والمراحل (١٩٣٢م) ومقالات متفرّقة.

٢. فى فـنّ القصص: أكابـر (١٩٥٦م) ومذكّرات الأرقش (١٠٤٩م) ولقاء (١٩٤٦م) ومِـرداد (١٩٥٢م) واليـوم الأخـير (١٩٦٣م) ويـا ابـن آدم (١٩٦٩م) وكان ما كان (١٩٢٧م) وأبوبطّة (١٩٥٨م) وهوامش (١٩٦٥م).

٣. فى فنّ المسرحيّة: الآباء والبنون (١٩١٧م) وأيّوب (١٩٦٧م).

٤. فى فنّ النّقد: الغربال (١٩٢٣م) وفى الغربال الجديد (١٩٧٣م).

٥. فى فـنّ السّـيرة والتاريخ: جـبران خليل جبران (١٩٣٤م) وسـبعون (فى ثلاث مجلّدات) (١٩٧٩م).

٦. فى فنّ المثل: كرم على درب (١٩٤٦م).

٧. فى فنّ المراسلة: رسائل (١٩٧٤م).

٨. فى فنّ الشعر: همس الجفون (١٩٤٥م).

٩. فى فنّ التأمّل: من وحى المسيح (١٩٧٤م).

وقد عُنيت دار العلم للملايين فى بيروت بنشـر «المجموعة الكاملة» لآثار ميخائيل نعيمـه ما بين (١٩٧٩م) و(١٩٨١م) فى تسـعة مجلّدات ضخمـة. (الفاخورى، ١٩٨٦م: ٣٧١)

الحريّة الروحيّة عند ميخائيل نعيمه

بسـبب اغتراب الأدباء المهجريين وحنينهم واتّصال روحيّتهم الشرقية بمادية الغرب أثر كبير فيما يؤدى إلى القلق الروحى والحيرة النفسية فى نفوسهم، فهذا الأمر دفعهم إلى شتى الفنون: الحرية، الحنين إلى الوطن، الفخر بالشرق والعرب، والتغنى بالله والإنسان، ومعالجة الحياة والموت ووصف الطبيعة، والتسـاؤل والتأمل، والحزن والألم. (خفاجى، ١٩٨٦م: ٣١٤ـ٣١٠)

وأمـا الحرية فميخائيل نعيمه كثيرا ما يهتمّ بالحريّة الروحيّة فى آثاره الأدبيّة، وقليلا ما يهتم بالحريّة الاجتماعيّة. ومحور حريّته هو الإنسان، إنه يستطيع أن يكون حرّا وإن يكن فى سـجن خلف الحصون المنيعة. «من أهمّ أهداف الأنبياء هو الحريّة الروحيّة أو بتعبـير آخر تهذيب النفس أى الحريّة الروحيّة» أيضا (مطهرى، ١٣٨٤ش: ٤٠)، من ثمّ

الحريّة التى يهدفها نعيمه حريّة قيّمة سماويّة. إنه أديب رسالى، ورسالته نحو الفضائل الأخلاقية السامية كالحريّة والمعرفة والإيمان ونفى الأخلاق السّيئة. فيعتبر الحريّة الهدف الأفضل للإنسان؛ لأنّه يولد حرّا ليعيش حرّا، كما يقول: «الإنسان للحياة لا للموت. وللمعرفة لا للجهل. وللحريّة لا للعبوديّة.» (نعيمه، مذكرات الأرقش، ١٩٧١م: ٧٦) ففى رأيه الحريّة أولى من العبوديّة وهذه فكرة متجاوبة مع الإسلام وروّاده. ويقول نعيمه فى هذا المجال: «ما ولد الإنسان ليكون رقيقا. وهو أبدا يحلم بالانعتاق من كلّ أنواع الرقّ. وستكون الحريّة نصيبه فى النهاية.» (نعيمه، ١٩٧٥م: ١٨٣)

الحريّة التى يرسمها لنا نعيمه لاتوجد فى دساتير الدول، بل مأوى هذه الحريّة هو قلب الإنسان؛ «وإن الحريّة ليست فى تحطيم حكم وتركيز حكم. بل فى بناء قلب الإنسان وفكره ووجدانه وإرادته بناء لامجال فيه للظلم والاستبداد والاستعباد. فالمجتمع الصالح لايقوم إلا بأفراد صالحين. مثلما لايقوم البناء الجميل إلا بحجارة جميلة. والعدل والحرية لاينبعان من القانون، بل من القلب والفكر اللذين هما مصدر كلّ خير وشرّ. فمن شاء أن يبنى للإنسان عالما يسوده العدل وتظلّله الحريّة عليه أن يبنيه أوّلا وآخرا فى قلب الإنسان وفكره.» (نعيمه، دُروب ١٩٧١م: ٥٢ـ٥١) فليس فى اختيار أى قانون أو دولة أو حكم أن يحدّد الحريّة بل اختيار هذا التحديد بيد القلب وصفاء روحه وخلوصه وعدالته. كما يقول: «علّمتنى الحريّة أن أطلبها فى روحى لاضمن سياجات الناس. وأفهمتنى أن أفقر الناس أكثرهم سياجات وأشدّهم عبوديّة مَن ظنّ أن فى وسعه أن يستعبد سِواه وأضعف الممالک أوفرها جنودا وأضخمها أساطيل. وأذلّ الأمم أمّة تتوهّم أن فى طاقة أمّة أخرى أن تسلبها أو أن تهبها الحريّة.» (نعيمه، زاد المعاد، ١٩٧٢م: ٢٦) فالحريّة التى يعتقد بها بعيدة عن القيود والحدود من ثم تختلف حريّته عن الحريّة التى يحتاج إليها المجتمع الإنسانى وهى تشمل بعض الحدود والقيود. أمّا نعيمه فاعتقد بالحريّة المطلقة التى نستطيع أن نقول ستحقق فى عالم الخيال لا فى عالم الواقع، فحريّة نعيمه حريّة مثاليّة فى عالم الخيال لا عالم الواقع.

وهكذا خلق الإنسان مختارا حرا فى أدب نعيمه، بمعنى «أنه أعطى فكرا وإرادة. فليس الإنسان فى أعماله كالحجر تدحرجه فيتدحرج ويسقط متأثرا بجاذبية الأرض

دون أن تكون له أية إرادة، أو كالنبات ليس له إلا طريق واحد فبمجرد توافر شروط معينة ينمو بالشكل المعتاد. أو كالحيوان الذى يؤدى أعماله بتأثير غريزى، كلّا إن الإنسان يجد نفسه دائما على مفترق طرق ليختار منها أيها شاء بملء حريته ووفق مشيئة ونوعية تفكيره وليس مجبورا على سلوك أحدها لاغير وإنما الذى يعين أحد الطرق هو أسلوب فكره واختياره.» (المطهرى، ١٤٠٤ق: ٥٧)

طرق الوصول إلى الحريّة الروحية فى أدب نعيمه

الف) المعرفة

من الأهداف السامية التى يطلبها الإنسان هى الوصول إلى قمّة الحريّة، ولها طريق وهى "المعرفة" كما يرى نعيمه: «أن الحريّة لاتكون إلا بالمعرفة.» (نعيمه، النور والديجور، ١٩٧٣م: ٤١) فعندما يعرف الإنسان كلّ شيء فهو يكون سيّد ما يعرفه فعندئذٍ هو حرّ ولايحتاج إلى معرفة شيء، كما صرّح نفسه "أنا طالب معرفة" فواضح أنّه يطلب من وراء هذه المعرفة الحريّة. لاحظنا خلال سيرنا فى آثار نعيمه، إنه يحارب نفسه محاربة للوصول إلى المعرفة والحقيقة.

يعتبر نعيمه غاية عمر الإنسان هو الوصول إلى ذروة المعرفة. التى «لاتنال فى مدرسة أو مدارس. ولا فى فسحة معلومة من العمر. لا ولا فى عمر واحد. بل نحن نلتقطها ـإذا عرفنا كيف نلتقطهاـ فى كلّ لحظة من وجودناـ فى اليقظة والمنام، فى الوطن والغربة، فى الحياة والموت.» (نعيمه، زاد المعاد، ١٩٧٢م: ٤٧)

معرفة النفس أساس للمعارف الأخرى؛ لايزال يدعو نعيمه إلى محاسبة النفس وتطهيرها، وهى من أهم الطرق التى اتّخذها للغلبة على موانع الحياة وغربلة ماضيه وزواله الشهوات والرذائل. عندما يسيطر الإنسان على نفسه يستطيع أن يعرفها معرفة كاملة وعندئذ تفتح له أبواب معرفة هذا العالم وخالقه. يبدأ كل شيء بنفس الإنسان. عندما يعرف الإنسان نفسه سيجد فيها كلّ شيء، وكلّ إنسان. عندما يفوز الإنسان بالخوض فى خفايا نفسه يجد مفتاح أزماته فى عالمه الخارجىّ. يقول سقراط: "اعرف نفسك"؛ فيذهب نعيمه عندما الإنسان يسأل نفسه "مَن أنا؟"، فى الحقيقة، جوابه على

هذا السؤال تقدمة لمعرفة القصوى أو بتعبير آخر هو معرفة الكون.

وستحقق معرفة "أنا" بالغوض فى التفكير والتأمّل العميق. يرى هذا الأديب عمر الإنسان فرصة لِكسب المعرفة التى تؤدى إلى الثروة والمجد والعزّة. وإن عزّة نفسه لتأبى عليه أن يكون نكرة. فَويل ألف ويل على النفس التى تكون نكرة غير معرفة. بين الحريّة والمعرفة صلة وثيقة بحيث عندما يسلك الإنسان طريق المعرفة ففى النهاية يصل إلى الحريّة، وعندما يقطع الإنسان طريق الحريّة فيستطيع الوصول إلى المعرفة، فالحريّة والمعرفة رفيقان متلازمان، «المعرفة هى الطريق المؤدى إلى الحريّة. فحيث لامعرفة لاحريّة وحيث لاحريّة لامعرفة» (نعيمه، فى مهب الريح، ١٩٧٢م: ٧٣ـ٧٢)، إذ مبدأ الحريّة هو المعرفة والمعرفة الكاملة هى عين الحريّة. إنه يعتقد: «المعرفة وحدها المعرفة الشاملة، الكاملة هى الحريّة. والحريّة وحدها هى المعرفة. أما بعض المعرفة وبعض الحريّة فضرب من العبوديّة الغنيّة أبدا بالأزمات والمشكلات والنزعات ومختلف صنوف الويلات. والحريّة منها براء.» (نعيمه، اليوم الأخير، ١٩٧٢م: ١٣٢ـ١٣١)

إنه يقترح لكسب المعرفة طريقين: أحدهما طويل ومتعرّج وشائك جدّا. ولكنّ فى منعطفاته وبين أشواكه من يدفع المناظر والرياحين ما بدفع السائر فيه على السيّر أبعد فأبعد. فلاينتهى إلى المعرفة. بل ينتهى إلى الموت. ذلكما هو طريق معرفة الخير والشّر. إنّه طريق مسدود. إلا أنّه، بالنتيجة، يؤدّى إلى المعرفة عندما يقنط منه السائر فيه فيعود يفتّش عن الطريق الآخر. وأنا أحذّركما منه لأنكما، إن سلكتماه، فسيكون اتكالكما على نفسيكما لا علىّ. أمّا الطريق الثانى فأقصر من الأوّل بكثير. وليس فيه من المغريات مثل ما فى الأوّل. والذى يسلكه لايتّكل على نفسه بل علىّ. لذلك كان سلوكه أشقّ من سلوك الأوّل. لأنّه ينطوى على التنازل عن "أنا" الموهومة التى على هديها يسير سالك الطريق الأوّل فلايزداد ضلال فوق ضلال. وإنى لأعلم أنكما ستختارون الطريق الأوّل؛ لأنّه يبدو أكثر إغراء من الثانى بما يثيره من اعتزاز فى نفسيكما باستقلال ذاتكما عن ذاتى وباتكالكما على نفسيكما لاعلىّ.» (نعيمه، يا ابن آدم، ١٩٧٣م: ١٧٥ـ١٧٤) فى رأى نعيمه، عندما يتعلم الإنسان كيف يعاشر الناس ويعيش معهم دون أيّة هواجس فعندئذ يكشف له أوّل الطريق إلى المعرفة.

إنه يرى عندما يخضع الإنسان للمعرفة ويستسلم لها فهذا الخضوع دالٌّ على حريّته وعدم عبوديّته. وعندما يصل إلى المعرفة والفهم فعندئذ يشعر بالحريّة القيّمة التى تكون «ثمرة نادرة تنبت على شجره نادرة تدعى الفهم.» (نعيمه، كرم على درب، ١٩٧٢م: ١٠٤) كلّ من سار على الدرب وصل، فلانجد صَرح الحريّة دون المعرفة، ولانجد صرح المعرفة خالٍ من الحريّة. نعيمه يحبّ نفسه حبّا كثيرا لأنّه يحبّ الحياة وفى رأيه لاقيمة للحياة إلا بما تشتمل من الطموح إلى المعرفة والحريّة والخير والعدل والجمال. إذ الحريّة هذه تعطى الحياة معنى. فالحياة دونها هى سجن مظلم. «أن الحكيم لايعرف للحياة غير معنىً واحد. وذلك معنى الحريّة. فحيث لاحريّة لاحياة. وكلّ ما يحدّ من حريّة الحكيم هو موت له.» (نعيمه، صوت العالم، ١٩٧٣م: ٨٠) فالإنسان لايزال يبحث عن حياة بعيدة عن الحرب، فلهذه الحياة طريق وهى الحريّة، وفى رأيه، الحريّة روح الحياة، فالحياة بغير الحريّة كالجسد دون الروح: «أنّنا لاننفكّ نتشدّق بالحريّة وبالسلم إذ نحن نقيّد الإنسان بالسلاسل فندفعه دفعا على الحرب. لأنّ الإنسان لايتعشّق شيئا تعشُّقه للحياة. والحياة بغير حريّة كالجسد بغير روح.» (نعيمه، ج٣، ١٩٧١م: ١٤٨)

يجب على الذى يهدف الحريّة أن تكون له إرادة الحرّ؛ لأن الإرادة التى لم تكن الحرّ وقد تكون فى قيد الشهوات والأهواء؛ ولاتستطيع أن تهدف الحريّة وتصل إليها، «لاتكون الحريّة بغير إرادة الحرّ.» (نعيمه، صوت العالم، ١٩٧٣م: ٨٤) الإنسان ذو عقل وشعور فهو يستطيع عن طريق هذا السلاح الحاد اختيار أفضل الطريق من الطرق التى تجعل أمامه فى سبيل كماله وحياته المثلى.

الحريّة أفضل الآمال وأسمى الطموحات التى يتمنّى بها الإنسان، مَن يتذوّق الحريّة يوما يتذوّق الألوهة. «والألوهة تعنى معرفة كلّ شىء والقدرة على كلّ شىء» (نعيمه، النور والديجور، ١٩٧٣م: ٩٩)، فعندما يجد الإنسان طريقه إلى النفس يجد طريقه إلى اللّه أيضا. فمعرفة النفس تؤدى إلى معرفة اللّه. الذى يملك على نفسه جدير بتاج الحريّة التى من ثمرتها الطمأنية والهدوء. وهكذا الاعتقاد بالله لايبعد الحريّة عن الإنسان بل يرتقى روح الحريّة فى الإنسان، فى الحقيقة، عندما يكون الإنسان حرّا يستطيع اختيار الله وهذا الاعتقاد والاختيار يُساوى الحريّة دون أىّ جبر. يقول نعيمه: «غاية [الإنسان] من

وجوده معرفة نفسه. ومعرفته لنفسه تعنى معرفته الله. ومعرفته الله تعنى معرفة كلّ شىء. ومعرفته لكلّ شىء تعنى القدرة على كلّ شىء والإنعتاق من كلّ قيد وحدّ.» (نعيمه، صوت العالم، ١٩٧٣م: ١٤٤ـ١٤٣) إنه يرى معرفة الله فى الإنسان هى نقطة الدائرة من الحياة. عندما يصل الإنسان إلى الحريّة والمعرفة يستطيع أن ينمو ويتقدّم. وكما أشرنا سابقا؛ هذه الهدف الأعلى فى حياة الإنسان لاغير، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٩ـ١٠) كما يعتقد نعيمه: «هدف الإنسانيّة من وجودها هو معرفة كل شىء والقدرة على كلّ شىء» (نعيمه، صوت العالم، ١٩٧٣م: ٤١)، فتزكية النفس وتهذيبها تدفع الإنسان إلى معرفة الله.

وهكذا المعرفة والوعى طريقان إلى الحرية الكاملة فجدير بالإنسان أن يزيل ضباب الجهل والشک عن آفاق نفسه ويسير فى سبيل المعرفة المؤدية إلى الحريّة المثلى.

ب) الإيمان

قطعُ طريق الحريّة صعب جدّا، فالذى يسلک هذا الطريق الموحش يحارب فيه الأهواء التى خيَّمت على قلبه ويساعده فى هذه الحرب سلاح الإيمان لأنّه أقوى من كلّ سلاحٍ حديدىّ وأقطع منه، كما يقول نعيمه فى هذا الإطار: «إن سالک ذلک الطريق ليشعر بأنّه أقوى من الزعازع والزلازل. وهو المحارب الذى لاينام على الضيم ولاتُفَلّ له عزيمة. أمّا أعداؤه فليسوا من لحم ودم. إنّهم الشهوات السّود التى تخيّم على قلبه. فهو، إذ يسعى إلى الحياة والحرية، لايعتمد فى الدفاع عنهما على سلاح من الحديد والنار؛ لأنّه يعلم أن الحديد يفلّه الحديد، والنار تأكلها النارة ولكنه يتسلّح بالإيمان الذى هو أقوى من النار وأمضى من الحديد بما لايُقاس. ومن كان ذلک شأنه من حياته كان ثابتا فى الزمان والمكان وثبوت الحياة» (نعيمه، فى مهب الريح، ١٩٧٢م: ٣٢)، فالذى يتسلّح بالحريّة له قوة لاتصاب بالتغيير والزوال. وهذا الإيمان هو الهبة التى تعطى الإنسان لمحاربته النفس وظلمتها وآماله الكاذبة الواهية. عقل الإنسان وإرسال الأنبياء والكتب السماوية كلّها يدّل على الاختيار وإرادة الحرّ التى أعطاها الله الإنسانَ كما تدّل هذه الآية على هذا المهمّ: ﴿لَوْشآءَ اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدى﴾ (الأنعام: ٣٥) فالإيمان

مقدمة الحريّة ودون الإيمان لانرى لونا من الحريّة والذى يكون حرّا لايُصاب بالعبوديّة وبالعكس الذى الذى يعبد ما فى قلبه مِن الأهواء ليس بحرّ.

«إنّ المؤمن يستطيع كلّ شىء، هذا كلام لا وشى فيه ولاتنميق. وهو أبعد ما يكون عن المبالغة. إنّه الحقيقة العارية، السافرة. فالإيمان هو الكنز الذى إذا اكتشفه الإنسان فى قلبه بات فى غنىً عن كنوز الأرض كلّها، وباتت له القدرة على التحكّم بالطبيعة وبجسده الذى هو بعض من الطبيعة.» (نعيمه، من وحى المسيح، ١٩٧٢م: ١٧٨) فكل من يتسلّح قلبه بسلاح الإيمان فهو لايحتاج إلى تعلّقات الدنيا؛ لأنّ هذا القلب المؤمن هو الحرّ فلايحتاج إلى كنوز الأرض، والقلب الذى يشعر بالإيمان لقلب تنهار من حوله الشدائد، ولاينهار بالشدائد. فالإيمان الحىّ النابض هو المعجزة الكبرى التى يوصل الإنسان إلى الحريّة.

أنواع هذا الإيمان عند نعيمه نوعان: الإيمان الأعمى، وهو الإيمان الذى يبعثه الخوف فى نفس المؤمن ويثرثر به اللسان, ولايمسّ شغاف القلب وهو أضعف الإيمان. ولكنّه خير من اللاإيمان. يرى نعيمه أنّ الخوف والإيمان نقيضان اللذان لايجتمعان. أمّا الإيمان المبصر فهو حصيل التأمّل العميق فى بحر الحياة اللامتناهى. ومن شأن مثل ذلك التأمّل أن يبصر قلب الإنسان يفتحه أمام النوايا الطاهرة فتملأه محبة وخير وسخاء وأن يفتح فكره لمعجزاتها فتملأه دهشة. والإيمان الأعمى فى الواقع عدوّ الإيمان ومواهب الإنسان. إنّه إيمان الشفاة دون القلوب. كل إيمان لاتقدم على الوعى والمحبّة هو تخدير للإيمان والإيمان المخدّر هو أشدّ خطرا على الناس من العقل والمخدّر والضمير المخدّر (المصدر نفسه: ١٧٥)، فكثيرا ما يستحسن نعيمه الإيمان المبصر على الإيمان الأعمى لأنه مساعد الإنسان فى سبيل المعرفة إلى الحريّة وهذا الإيمان هو السلاح القوى الذى لم يزل ولايزال مستسلما أمام الدهر.

والزمان الذى يسلّح بالإيمان لايفقد حريّته الروحيّة ولايسيطر عليه أىّ خوف إلّا خوف الله. فالإنسان المؤمن هو الإنسان الحرّ بمعنى الحقيقى للكلمة، «مَن كان أسير الله كان حرّا من غير شك.» (نعيمه، ١٩٧٥م: ٢٢٨) فليس جدير بالإنسان أن يكون عبدا لأحد إلا الله وهى الحريّة نفسهما. وأما المحبّة فهى طريق الوصول إلى هذا الإيمان

عنـد نعيمه؛ كما يقول: «لا الإيمان يقوم بغير المحبّة. ولا المحبّة تقوم بغير الإيمان. فكأنهما التوأمـان المتلاصقان لاحيـاة للواحد إلّا فى حياة الآخر.» (نعيمه، من وحى المسـيح، ١٩٧٢م: ١٨٤)

وفى النهاية نشـير إلى الإيمان الذى يدعو إليه نعيمه، فهو غير الرهب والفقر وقبول الذلّة والهوان بل هو القدرة والشـجاعة والكنز الروحى، كما يقول: أمّا "الإيمان" الذى دعـوت إلى اسـتعادته والاعتصام به فهو غير الخنوع والاستسـلام والخوف والقناعة بالذّل والفقر والمسكنة. إنّه القدرة التى تدرک حدود العقل فتتخطاها إلى حيث تتكشّف الحياة عن ثروات روحيّة أين منها ثروات الذهب الأصفر والأبيض والأسود؟» (نعيمه، ج٢، ١٩٧١م: ٢٠٠)

عوائق الوصول إلى الحريّة

لكل إنسـان هدف فى حياته, ولاتخلو الأهداف من الصعوبات والموانع مهما كانت سـهلة، فعندما يقصد الإنسان الحريّة كالهدف الأفضل فى حياته, فهذا الهدف ليس بعيدا عن المشقّات والموانع. إنّنا بعد دراسة آثار نعيمه استخرجنا هذه الموانع فى سبيل الحريّة وقبل أن نقوم بها، نقول مادام الإنسان يعيش فى حاجات جسده وهى تتكاثر باستمرار، فهو عبد لحاجاته بعيد عن الحرية. عندما صار الإنسان أسير الدنيا وظواهرها الكاذبة فيبتعـد عن هدفـه الحريّة، فيرى نعيمه: «من خدم الدنيا لا لأجل الحقّ بل طمعا بما فيه مـن ملذّات أصبح عبيدا ذليلا لها وظلّ بعيـدا عن حريّة الحقّ» (نعيمه، فى مهب الريح، ١٩٧٢م: ٢٦)، فخادم الدنيا عبد لها بعيد عن طريق الحريّة.

العوائق الرئيسة فى سبيل الحريّة

الشهوات الخمس

يقول نعيمه: «من زمان دفنتُ خمسـا من شـهواتى: شهوة السـلطان، وشهوة الغنى، وشـهوة النساء، وشهوة الشهرة، وشهوة الخلود» (نعيمه، كرم على درب، ١٩٧٢م: ٧٦)؛ وأمّا شـهوة الخلود فلايستطيع أحد السيطرة عليها. وهذه الشهوة هى عامل النشاطات والحركات فيهم. ومن هذا المنظر هذه الشـهوة من الصفات الحسـنة وحتى تستطيع أن

توصل الإنسان إلى الحريّة فى حياته فلاتعدّ من الموانع. وأمّا شهوات الأربع الباقية:

الف) شهوة السلطان

يعدّها نعيمه من الصفات الرذيلة التى تمنع الإنسان من الوصول إلى الحريّة خاصّة الذين يتنافسون ويتخاصمون للوصول إليها بطرق غير الصحيحة والوسائل الشيطانيّة كالجدال والقتال وضروب الخداع والكذب والنفاق. فعلى الإنسان أن لايعتنى بالجاه والثروة والسلطة ومغرياتها لأنّ الذى يحرص الوصول عليها فهو إنسان مسجون.

ينتقد نعيمه جهل العالم وعدم فهمه، فالعلم يسعى بإخفاء هذا الجهل وعدم الفهم عن طريق السلطة الواهية الكاذبة؛ السلطة التى لاتنفكّ تبرم معاهدات الهجوم والدفاع مع القوّة الزائفة. والاثنتان معا تسلّمان قيادتهما إلى الرعب والخوف. هكذا سير السلطة فى العالم, وهذا سبب دفع الجزية فى العالم بسبب الجهل، فيرفض السلطة العالمية وأصحابها لأنّهم وأعمالهم مانع فى طريق المعرفة والحريّة والعدالة. وفى النهاية نشير إلى صلة نعيمه بالسياسة كما يقول نفسه: «بينى وبين السياسة يا صاحبى مثل ما بين الزيت والماء وإذا أنا ربحت النيابة والوزارة خسرت نفسى، وهدمت فى لحظة ما بنيته فى سنين. ونفسى أعزّ لدىّ من أىّ منصب سياسى. والذى بنيته أحبّ إلى قلبى وأجمل فى عينى من أن أضحيّه فى سبيل نيابة أو وزارة.» (نعيمه، ج٣، ١٩٧١م: ٩٠)

ب) شهوة الغنى

الحرص ينشأ من حبّ الجسم فيدفع الإنسان نحو الحيوانيّة لأنّ الحريص هو كالشيطان. الحرص والطمع فى أمور الدنيا وحبّ الثروة فوق رفع الحاجات الضروريّة حاجز أمام الوصول إلى الحريّة كما يقول نعيمه: «خازن المال خزانته فارغة.» (نعيمه، كرم على درب، ١٩٧٢م: ٤٥) المال فى رأيه عدوّ ما من صداقته بدّ. ذلک لأنّنا خلقنا حولنا جوابات فيه المال ذا سلطان لايدانيه أىّ سلطان. فعندما يحرّر الإنسان من سجن المال والثروة فعندئذ يستطيع أن يجد الله فى نفسه ويعرفه وهذه المعرفة توصله إلى الحريّة.

نعيمه يخاف من المال، لأنّه خالق الحروب والنزاع، كما يعتقد أن الذى يغرق فى المال والثروة يفسد ضميره ويزيل صفاته الحسنة الكريمة فى ذاته. الذى يغوص فى الغنى

والثـروة یجعل المال معبوده الذی لایقبل شـریکا فی عبادتـه فهکذا کلّ ما فی العالم من الغذاء، والماء، والثوب، والدواء والنور والهواء وسـائر حاجات الإنسـان کلّها مخلوق المال لاشیء آخر. إنه یری أن «المال شحیح بخیل أکثر ممّا تصوّره فی الأرض.» ویقول: «أنّـنی ما تعبدّت یوما للفلس، ولا مکّنته من قلبی وفکری، ومن زمام حیاتی. بل کنت، وما برحت، أقنع بما یأتینی منه "جزاء" عمل أعمله ولاأخجل به أقمته لها فی نهایة ذلک الطریـق. إمّـا إن تکون لی ثروة طائلة فأمر ما تمنیتـه فی أیّ بالأدران والرزایا، إلا إذا طهرّته نیّة صالحة وعمل صالح.» (نعیمه، ج٣، ١٩٧١م: ٩١)

بالنظـر إلی هذه الرؤیة لنعیمه فی المال والثروة، یعتقد: «الفقر لیس عارا, وإنما العار فی الذّل والاسـتکانة للفقر. والفقر دون الذلّ والاسـتکانة أعظم مدرسـة فی الأرض.» (نعیمـه، ١٩٩٣م: ١٠٩) إنه یـری «زوال النعمة بعض من دوامهـا.» (نعیمه، کرم علی درب، ١٩٧٢م: ٨٩) لأنّ النعمة والثروة عدوّ نفس الإنسان عندما لم یستحسن الإنسان استعمالهما. جدیر بالإشارة إلی قناعته فی حیاته الساذجة البعیدة غیر المخدوعة لمظاهر الدنیـا عندما یقول: «فقدت محفظة نقـودی, فقال لی قائل: لعلّها هی التی فقدتک حالما اهتدت إلی من هو أحق منکَ.» (المصدر نفسه: ١١٦) «حیث یکون کنزک یکون قلبک. لذلک إذا شـئتَ أن لایذهب قلبـک بذهاب کنزک فلاتکنز لک مـا هو عرضة للتلّف والضیاع: «لاتکنزوا لأنفسـکم کنوزا فی الأرض حیث یرعی السـوس والعثّ وینقب اللصوص فیسرقون. بل اکنزوا لأنفسکم کنوزا فی السماء حیث لایرعی السوس والعثّ ولاینقب اللصوص فیسرقوا.» (نعیمه، من وحی المسیح، ١٩٧٢م: ٨٧)

فی خاتمـه هذا البحث نقدّم الـکلام القیمّ الذی ورد فی نهج البلاغة فی رفض ظواهر الدنیـا الزائلة: «لاتجزعوا مِن ضَرّائها وبؤسـها، فإنّ عزّها وفخرهـا إلی انقطاع، وإنّ زینتها ونعیمها إلی زوالٍ، وضرّاءها وبوسـها إلی نفـاد، وکلُّ مدة فیها إلی انتهاء، وکلُّ حَـیّ فیها إلی فناء.» (الإمام علی (ع)، خ٩٩: ١٦٥) فملذّات الدنیا لیسـت إلا ظواهر خادعة فیجب علینا نبتعدها ولانجعل أنفسنا أسیرها.

ج) شهوة النساء

هذه الشـهوة میل فطری فی وجود الإنسـان وعندما تحقّق فی إطار العرف والشرف

شـــيء جيّد، أما عندما لايتوجّه الإنسان بهذا الإطار ويهدف شهوة النساء بقصد المتعة فعندئذٍ هو أسيرها ويكون فى قيد أميال نفسه الرذيلة فينحرف عن طريق الحريّة. «وأمّا الشـــهوة الجنســـية فقد تحوّلت بالموت إلى شـــيء جميل جدّا ـإلى زنبقة بيضاء، هيفاء» يرمـــز بها نعيمه إلـــى العفّة (نعيمه، ج٣، ١٩٧١م: ٨٩)، فالعفة هى أســـاس الحبّ ودرع لها، والخضوع أمام هذه الشـــهوة يقتل الحبّ العفيف. فى رأيه العلاقات الجنســـيه مصدر المشكلات والأزمات فى العالم. إنه يقترح بالرجل أن يعرف قلب المرأة وقيمتها، فعندئذٍ يســـتطيع أن يعرف قلبه ويقول له: «الرجل الذى لايحاســـب نفســـه أدّق الحســـاب عن علاقاته بالمرأة تحاسبه الحياة أقسى الحســـاب عن استهتاره بمقدّساتها، وتدنيسه الإناء الطاهر الذى اختارته مســـتودعا ومرخما لبذارها.» (نعيمه، ج١، ١٩٧١م: ٢٧٣) أعنف الشـــهوات عنده هو شهوة النســـاء لأنّ الذى تسيطر هذه الشهوة السوداء على قلبه فهو ليس بحرّ؛ لأن قلبه وروحه فى أسر هذه الرذيلة. إنه يعتقد أن الزواج «ليس تزاوج أفكار وقلـــوب فقط. بل تزاوج أجســـاد كذلك. وأقرب الزواج إلى الســـعادة ما ارتكز على تجاذب فكرىّ وقلبىّ وجســـدىّ، لاعلى واحد من هذه فقـــط...» (نعيمه، ج٢، ١٩٧١م: ٣١٧) فعندما يخلو قلب الإنسان من هذه الشهوة، فهو يستطيع أن يسير فى طريق الحريّة.

د) شهوة الشهرة

نعيمه لم يكن رجلا سياسيا أو اقتصاديا بل كان أديبا كاتبا عاش حياة ساذجة بعيدة عن الإكثار فى حاجات العيش وإن طلب الشهرة فى حياته فهو فى مجال حياته الأدبيّة, ولكن هذه الحياة ليســـت بمجرّد كســـب الشهرة فقط، كما يقول نفسه: «أمّا شهوة الشهرة فقـــد كان لها فى أوّل عهدى بالكتابة مركز الموجّه الأوّل والقائد الأعلى أقرانى يلازمنى بشكل عنيف، فلا أجرؤ على البوح به لأحد فى الناصرة. وتبلور وتركّز فى السنوات التى أمضيتها طالبا فى روسيّا. ... ولم يبقَ شكّ عندى أن الميدان الذى كان يغرينى أن أكسب فيه شهرتى هو ميدان الأدب وحده. (نعيمه، ج٣، ١٩٧١م: ٩١)

إن الشـــهرة عندما تُطلَب طلبا كثيرا تتبدّل مانعا فى سبيل حياة الإنسان لأنّها تدفعه نحو الأســـر فى ســـجنها. فيذهب أن الشهرة شىء له زوال. فليست الشهرة شيئا أن يحبّها

الإنسان حبّا كثيرا؛ لأنّه يمكن زوالها فى كل دقيقة وكل ثانية. يقول نعيمه فى كلامه القصار: «الكبرياء والذلّ توأمان متلاصقان» (نعيمه، كرم على درب، ١٩٧٢م: ٢٠)، فالذى يغرق فى بحر الشهرة دون شكّ يُصاب بأمواج الغرور والتكبّر وفى النهاية يصاب بالذلة والهوان وموت الروح بيد هذه الشهرة القاتلة. والذى كان أسيرا فى يد هذه الشهوات ليس إنسانا حرّا لأنّه بعيد عن الفضائل الأخلاقيّة، كما يقول أحمد أمين: إن شهوات النفس غير متناهية فإذا أعطاها المراد من شهوات وقتها فيصير الإنسان أسير الشهوات لاتنقضى وعبد هوى لاينتهى، ومن كان بهذه الحال لم يرج له صلاح، ولم يوجد فيه فضل. (أمين، ١٩٦٩م: ٢١٣ـ٢١٢) فأفضل الطريق فى حياة الإنسان أن يهتم بهذه الشهوات فى حدود المعقول وفى إطار الأخلاق. ومحاربته أهواء النفس تؤدى إلى اقترابه من السلام والأمنية. وفى نهاية هذا البحث نشير إلى هذا الكلام: «ضابط نفسه كراكب الفرس الذلول يقصد حيث أراد فيوجهها كما يشاء، ومن لم يضبط نفسه كراكب الصعبة، لايسيِّرها كما يهوى، ولايصل إلى غرضه بالسير كما تهوى؛ فى ضبط النفس حفظ الصحة وطمأنينة العقل والسعادة والحرية وسلطان كسلطان القائد على جنده أو الربان الماهر على سفينته.» (أمين، ١٩٦٩م: ٢١٩)

وبعد التطرق إلى هذه الشهوات نذكر بعض الصفات الرذيلة التى تعرقل الإنسان فى سبيل وصوله إلى ذروة الحريّة:

الحسد

الحسد هو الصفة السيّئة التى يغطّى قلب الإنسان ويبعده عن الصفاء والصداقة كما روى عن النبى (ص): "الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب". يعتقد نعيمه هذه الرذيلة الأخلاقية بداية للرذائل الأخرى كالغضب والغرور والظلم والكثير من الصفات السيّئة التى أشدّها الغضب. وأما كلامه القيمّ حول هذه الرذيلة فإن «للحسود ألف عين. ولكن فى كلّ عين ألف جمرة» (نعيمه، كرم على درب، ١٩٧٢م: ٤١)، فهو ينهى الحسود عن الحسد؛ لأنّه النار المشتعلة التى تحترق صاحبه قبل أىّ شخص. هذه الرذيلة مانع فى سبيل الحريّة والمعرفة والإيمان الحقيقى وسبب الجدال بين الناس. إنه فى الحقيقة يمنع الإنسان أن يكون حرّا لأنّه فى قيد حسده الذى يؤذية؛ فلايستطيع أن يكون حرّا.

الجهل

الجهـل هو عدوّ قويّ أمام الحريّة، «حيـث يكون الجهل لايمكن للحريّة أن تكون.» (نعيمه، الآباء والبنون، ١٩٧٢م: ١٣١) كما أشـرنا سابقا أن المعرفة طريق الوصول إلى الحريّة ولكن عندما لايعرف الإنسـان نفسـه، لن يعرف خالقـه الله وعندئذ هذا الجهل مانع أمام سيره فى سبيل الحريّة وعندما يحارب الإنسان هذا الجهل ويعرف الله يستطيع أن يتحـرّر. الجهـل ـ لو عرفه صاحبه. هـو الطريق إلى المعرفة، فالجهـل مانع الحريّة ومحاربته طريـق الوصول إلى الحريّة. يعتد نعيمه الجهل رذيلة تثير نار الغضب والتكبّر والغـرور، كما قال الله تعالى: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَـدَّكَ لِلناسِ وَلا تَمْشَ فِي الأَرْضِ مَرَحاً اِنَّ اللّهَ لايُحِـب كُلَّ مُختـالٍ فَخوُرٍ﴾ (لقمـان: ١٨) فالتكبّر من الصفات السـيئة التى يهلك الإنسـان ويظلم قلبه كما نرى هذا الأثر السـوء منذ بداية خلق الإنسـان عندما تكبّر إبليس ولم يسجد أمام آدم فأصاب بدعاء الناس عليه، كما قال الله: ﴿وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ إسْجُدُوا لِآدَمُ فَسَجَدُوا إلّا اِبْليسَ أَبى وَاسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الكافِرينَ﴾ (البقرة: ٣٤) فعلى الإنسان أن يهرب من الجهل لا من الجاهل فيذهب نعيمه أمام الجاهل مذهب التساهل ويوصى الإنسـان بمداراة مع الجاهل. عندما يقـول: «لاتهربوا من الجاهل واهربوا من الجهل. لأنّكم عندما تهربون من الجاهل لاتهربون إلا من أنفسكم. أما هربكم من الجهل فهـو اقتراب من المعرفة.» (نعيمه، زاد المعـاد، ١٩٧٢م: ٥٩) الجهل عامل إثارة النزاع والحرب، والاختلاف والظلم، بينما دون الجهل، يعيش الإنسان فى عالم السّلم والتفاهم والصداقة، إنه يرى أن «قلبا جاهلا لقلب مزدوج. والقلب المزدوج يخلق عالما مزدوجا. والعالم المزدوج يولّد أبدا نزاعا وحروبا. بينما القلب الفاهم قلب موحّد. والقلب الموحّد يخلـق عالمـا موحّدا ـ والعالم الموحّد عالم سـلم أبدى. إذ لابـدّ للحرب من خصمين.» (نعيمـه، ١٩٧٥م: ٢٣٣ـ٢٣٢)، فالجهـل عامل القلب المزدوج غـير الموحّد الذى يقود الإنسان إلى شفير الهلاك. الذى يكون جاهلا سيكون أسير القلق والخوف والنزاع وفى النهاية الموت, وهذه كلّها ليست إلّا ثمار الجهل.

إن الجهل منشـأ الكثير من الأمراض الاجتماعية، واهتمام الكثير من الدول زوال هذه الأزمة. يقترح نعيمه على الإنسـان بالخلاص من الجهل اقتراحا مباشـرا صريحا

وهو: «یا ویل الناس من التقالید وتعاویذ التقالید!»، و«إنّنی أعیذکم من التقالید وسلطانها.» (نعیمه، زاد المعاد، ١٩٧٢م: ١٣٠و١٢٨) فهو یُعَدّ التقالید والسنن الماضیة سدا منیعا أمام محاولة الإنسان للوصول إلی المعرفة والحریّة؛ لأنّه یری هذه التقالید عامل أساسی یؤدی إلی الجهل المطبق, ویدعو الإنسان فی هذا المجال إلی التجدید. کما یدعوه إلی الحرب مع أعداء نفسه وفی رأیه أبغض هؤلاء الأعداء هو الجهل. الإنسان الجاهل لایستطیع التمییز بین الحقّ والباطل وبین الصدق والکذب, وهکذا سیبقی فی جهله إلا عندما یتحرّر من قید التعصبّات والتقالید العمیاء, ویری لیس فقر أعظم من الجهل وعدم المعرفة والفهم. وفی نهایة هذا نشیر إلی کلام نعیمه حیث یقول إنه «ما من مصیبة إلا الجهل.» (نعیمه، مذکرات الأرقش، ١٩٧١م: ٤٧) فالجهل هو عامل الأزمات والمصائب فی حیاة الإنسان.

الظلم

یدعو نعیمه الإنسان إلی البعد عن ظلم الظالمین. وینزع نزعة التسامح فی هذا المجال: «لاتکرهوا الظالم، واکرهوا الظلم. لأنّکم إن کرهتم الظالم کنتم ظالمین مثله. وإن أحببتموه عرفتم العدل ورددتم الظالم إلیه» (نعیمه، زاد المعاد، ١٩٧٢م: ٥٩)، ولکن فی رأینا لیست المداراة مع الظالم بجدیر؛ لأنّها توفّر الطریق لظلمه. ویتحدّث عن الظلم الذی ارتکبه الإنسان فی الحروب, ویری لیست هذه الحروب ظالمة بل الظالم هو الإنسان. الظلم یظلم قلب الإنسان, ویسود روحه بحیث لایجد طریقا إلی الحریّة؛ لأنّه یبقی فی سواد ظلمه. وعندما یخیّم الجور علی الإنسان وأعماله فهو قاسی القلب ولایعرف المحبّة والعدالة فهکذا هو أسیر بید ظلمه ولیس حرا.

الکذب والخیانة

أشد ما یؤلم روح نعیمه ویعذّبه هو الکذب وعدم الصداقة کما یقول نفسه: «یؤلمنی أشد الألم أن ینزلق لسانی روحی، إلی الکذب.» (نعیمه، الیوم الأخیر، ١٩٧٢م: ٩) کما یقول: «الکذب أحبولة لاتصطاد إلا الکذوب.» (نعیمه، کرم علی درب، ١٩٧٢م: ٣٣) فکما یقترح الأستاذ أحمد أمین هناک طریقة واحدة للصدق وعدم الکذب وهو: «أن

يقول الإنسان الحق، كل الحق، لا لشيء غير الحق.» (أمين، ١٩٦٩م: ١٩٩) وعندما يكذب الإنسان غيره كأصدقائه وأهله فهو يكذب نفسه أيضا، فعلينا أن نهرب من هذه الصفة السيئة. فأفضل الفضائل وأحسن الصفات هو الصداقة والبعد عن الكذب.

وأما الخيانة فهى جهيض الأمانة. (نعيمه، كرم على درب، ١٩٧٢م: ٧٢) فالكذب والخيانة صفتان رذيلتان تبتعدان روح الصدق عن نفس الإنسان وتصعبان سيره نحو الحريّة.

وأمّا بعض نصائح نعيمه حول البُعد عن هذه الصفات الرذيلة:

«لاتحتقروا أحدا من الناس. فخير لكم أن تكونوا محتقَرين من جميع الناس من أن تحتقروا إنسانا واحدا. لأنّكم إذا احتقرتم أى إنسان احتقرتم الإله المشمول فيه. وإذا احتقرتم الإله المشمول فى أى إنسان فكأنّكم احتقرتموه فى نفوسكم. وإن أنتم احتقرتم الإله المشمول فيكم ـوهو دليلكم إلى الميناء، إلى الإله الشاملـ فكيف ترجون أن تبلغوا ميناءكم؟» (نعيمه، ١٩٧٥م: ٣٠٣)

إنه ينهى الإنسان عن البغض قائلا: «وأنتم إن تخلّصتم من ضرس مسوّس باقتلاعه فكيف تقتلعون قلبا نخره سوس الحسد أو البغضاء أو الخيبة؟» (نعيمه، زاد المعاد، ١٩٧٢م: ٦٧) يؤيد نعيمه ضربا من البغض وهو البغض على ما فى الناس من ضعف وإثم. فعلى الإنسان أن ينزع ثوب البغضاء لأنها «تفصلكم عن الإنسان أو الشيء الذى تبغضون. ومادمتم منفصلين عن أى شيء أو أى إنسان بقيتم منفصلين عن الله الكائن فى ذلك الشيء وذلك الإنسان» (المصدر نفسه: ١٣٩)، فالبغض يبعد الإنسان عن الله لأن الذى يسود قلبه بالبغض لايعرف الله.

إنه يرى كلّ هذه الرذائل «عقالات للروح وحجارة رحى فى عنقه. والله ليس فى شيء منها. أمّا السبيل إلى الله فسبيل التعرّى» (المصدر نفسه: ١٣٩)؛ فعلى الإنسان أن يهرب من الشيء الذى ليس فيه لون من الله.

القلب المطمئن يجد طريقه ويسلكها دون الرعب، ولكن القلب الخائف لايستطيع الشعور بالحريّة لأنّه فى قيد خوفه. وأمّا نكبات الحياة فى رأى نعيمه فهى: «أن نتنفس الهواء لنحيا ثم أن ننفث فى الهواء، سموم أحقادنا وأحسادنا وأطماعنا لنميت ونموت.»

(المصدر نفسه: ٩٢ـ٩١)؛ كما يقول: «هى النكبة أن تسقينا الأرض من عصير قلبها الطاهر فنسقيها من دماء قلوبنا الممزّقة بشفار بغضائنا وأهوائنا.» (المصدر نفسه: ٩٢)

إنه بعد هذه النصائح القيّمة يتحسّر على إنسان اليوم، فيقول: «وخطيئة هو اهتمام الإنسان بحاجاته الدنيويّة أكثر من اهتمامه بحاجاته الروحيّة. ...وخطيئة هو الرياء والدّجل والتظاهر بما ليس فى القلب وكأنّه من القلب فى الصميم.» (نعيمه، من وحى المسيح، ١٩٧٢م: ٧٢ـ٧١)

إنه يعدّ هذه الموانع فى سبيل الحريّة من الأسباب الرئيسية للحروب أيضا: ومثلما للحروب الدامية أسلحتها الفتّاكة كذلك للحروب غير الدامية أسلحتها التى تفتك بالأجساد والأرواح معا، ولكن بطريقة بطيئة وغير منظورة. ففعلها هو فعل الجراثيم الخبيثة فى الخليّة الحيّة. من هذه الأسلحة: البغض، والحقد، والفسق، والحسد، والخداع، والنّفاق، والدهاء، والطمع، والجشع، وحبّ المجد والجاه والسلطان والمال.» (المصدر نفسه: ٢٥٨) الذى له نفس كبيرة يسير فى سبيل العلّو والنبل والصفات السامية: «من كان ذا نفس كبيرة كان أنبل من أن يغتاب أحدا من الناس أو أن ينمّ على أحد من الناس. فالغيبة والنميمة أقذار لايستطيب التغلغل فى أجوافها النتّنة والانتشاء بروائحها الكريهة إلا صغار النفوس. ...ومن كان ذا نفس كبيرة كان أبعد الناس عن التبجّح. والذى نفسه كبيرة لايكبر على أىّ إنسان، ولايذلّ لأىّ إنسان. فهو يعلم أن كرامته لاتُصان إلا إذا هو صان كرامة الغير، وإن كرامة تقوم على مذلّة الغير لمذَلّة فى ثوب الكرامة وشرفه أرفع من أن يكون ذلك الشرف الذى لايسلم من الأذى حتى يراق على جوانبه الدّم. (نعيمه، دُروب، ١٩٧١م: ٧٩ـ٧٨) فيرى جمال الحياة فى الصدق والعفّة لا فى الكذب والفسق والتكبّر.

يعتقد نعيمه بأن الذى فى قلبه صفة رذيلة كالحقد والفسق وحبّ المال والسلطان والكذب والرياء، فله روح فقير؛ كما يقول:

كل منافق أو سارق أو فاسق, فقير.
كل غضوب أو حقود أو ناقم, فقير.
كل حسود أو نمّام أو مُراء, فقير.

كل مزهوّ بمال أو جمال أو سلطان, فقير.
كل مغرور بأصله أو بفصله أو بعمله, فقير.
كل معتزّ بلقب أو وسام أو منصب, فقير.
كل من كان ذئبا فى جلد حمَل, فقير.
كل من أكل خبزه بعرق جبين غير, فقير.
كل من أذلّ جاره ليعتزّ، وأجاعه ليشبع, فقير.
كل من ركب هواه وجهل مبتداه ومنتهاه, فقير. (نعيمه، صوت العالم، ١٩٧٣م: ٢٠٤)

فعندما يسير الإنسان فى سبيل اللّه سيراً خالصاً فطبيعىّ أن يبتعد عن هذه الموانع والصفات الرذيلة. فعندما الإنسان يصلح نفسه ويسير فى الطريق الصحيح يصل إلى قمّة الحريّة التى بذرها فى ذاته وعندئذٍ يستطيع إصلاح مجتمعه، فالمجتمع الصالح قائم على الأفراد الصالحين، و«الإنسان حر بالطبع، وحريته أعظم ما يملک. كل ما من شأنه أن يشلها هو إذن جائر. فإذا أردنا إقامة مجتمع عادل، وجب علينا اكتشاف شكل ترابط يتميز بصفتين: الأولى أن لن يحمى كل إنسان، الثانية أن لايعيق حرية أى فرد. (كريسون، ١٩٦٢م: ٢٤٨ـ٢٤٧) على الإنسان الذى يهدف الحريّة أن يبدأ طريقه بنفسه، ويطهّر قلبه من الآفات البشرية كالحسد والبغض والظلم والرياء والحقد والكبرياء. وبعد أن تغلب على تلک الآفات فتحلّ محلّها الفضائل والحسنات التى تؤدى إلى الرجاء والفهم والإيمان وفى النهاية تسهّل له طريق المعرفة.

النتيجة

قد دعا نعيمه إلى بناء المدينة الفاضلة التى من أهمّ أركانها الحريّة تحت سيطرة القيمّ الأخلاقية السامية. وفى رأيه أقدس الواجبات فى حياة الإنسان هو المجاهدة فى سبيل حريّة النفس.

إنه فى نزعته المثالية يتحدث عن الحريّة بمعناها الروحى المطلق بحيث يتصل كلامه عن الحريّة بكلامه على المعرفة، والإيمان والوعى والإرادة ومادامت هذه الحرية وسيلة يمكن بها للخلاص. هذه الحريّة التى يقصدها نعيمه ستحقق عن طريق معرفة الإنسان نفسه وعن طريق الإيمان. وبين المعرفة والحريّة صلة وثيقة بحيث هما لاينفصلان، كما

الإیمان سلاح قویّ فی کسب الحریّة الروحیة.

وأما المعرفة فهی غایة حیاة الإنسان، وقصده منها هو معرفة النفس، ومعرفة الله، ومن یصل إلیها تحقق له الحریّة المثلی. إنه یری حریة الإنسان فی نفسه لا فی شیء آخر أو مکان آخر. وعندما یکون الإنسان طاهر القلب والفکر فعندئذ له نفس حر یستطیع السیطرة علی أفکاره وطموحاته.

إن الحریّة هبة إلهیّة قدّمت للبشر، ولایقدر أن یسلبها أحد, والجدیر بالإنسان أن یسعی فی صیانتها. والثورة علی الرکود والتقالید والقیود الأرضیة هی طریق النجاة والوصول إلیها.

إن شهوة المنزلة الاجتماعیة وشهوة الغنی وشهوة النساء وشهوة الشهرة من أهم موانع الإنسان فی الوصول إلی الحریّة، أمّا شهوة الخلود فیعدّها شی مُجید.

إنه یدعو الإنسان إلی الابتعاد عن الحسد والبغض والخوف والطمع وحبّ الدنیا؛ لأنها أعداؤه فی سبیل الحریّة. حیث یکون الجهل لیس للحریّة مجال فعلی طالبها أن یسعی نحو المعرفة لقَتلِ الجهل وعندما نهتمّ بأدب نعیمه فنراه منذ عرف الکتابة حتی نهایة عمره خدم المجتمع البشری فی سبیل الفضائل الأخلاقیة والنهی عن الرذائل الأخلاقیّة.

یمکن القول إنّه وصل فی حیاته إلی الحریّة الحقیقیة؛ لأنّه کثیرا ما ینادی بالقیم الأخلاقیة وینهی عن الرذائل التی هی موانع الوصول إلی الحریّة وعندما ندرس شخصیة هذا الأدیب الکبیر، یثبت لنا هذه الحریّة اثباتا.

المصادر والمراجع

القرآن الکریم.

نهج البلاغة.

أمین، أحمد. (١٩٦٩م). الأخلاق. بیروت: دار الکتاب العربی.

خفاجی، محمّد عبدالمنعم. (١٩٨٦م). قصة الأدب المهجری. بیروت: دارالکتاب اللبنانی.

زکا، هدی فؤاد. (١٩٦٢م). «المناحی الفکریة فی أدب میخائیل نعیمه» أطروحه الماجستیر. الجامعة الأمریکیة. بیروت.

الفاخوری، حنا. (١٩٨٦م). الجامع فی تاریخ الأدب العربی. بیروت: دار الجیل.

كريّسون، اندريه. (١٩٦٢م). تيارات الفكر الفلسفى من القرون الوسطى حتى العصر الحديث. ترجمة رضا، نهاد. الطبعة الاولى. بيروت: منشورات عُويدات.

المطهرى، مرتضى. (١٤٠٤ق). الإنسان والقدر. ترجمة التسخيرى، محمّد على. طهران: مركز إعلام الذكرى الخامسة لانتصار الثورة الإسلامى فى ايران.

مطهرى، مرتضى. (١٣٨٤ش). آزادى معنوى. ط٣٣. انتشارات صدرا.

نعيمه، ميخائيل. (١٩٧٢م). كرم على درب. ط٦. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والن

ـــــــــــــ (١٩٧٣م). صوت العالم. الطبعة السادسة. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــــ (١٩٧٢م). زاد المعاد. الطبعة السابعة. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــــ (١٩٧٣م). النور والديجور. الطبعة الخامسة. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــــ (١٩٧٢م). فى مهب الريح. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــــ (١٩٧٢م). الآباء والبنون. الطبعة السادسة. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــــ (١٩٧٢م). اليوم الأخير. الطبعة الرابعة. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــــ (١٩٧٢م). فى الغربال الجديد. الطبعة الخامسة. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــــ (١٩٧١م). دروب. الطبعة الخامسة. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــــ (١٩٧٥م). مِرداد. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــــ (١٩٧١م). سبعون فى ثلاث مجلدات. الطبعة الرابعة. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــــ (١٩٧٤م). جبران خليل جبران. الطبعة السابعة. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــــ (١٩٧٢م). من وحى المسيح. الطبعة الخامسة. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــــ (١٩٩٣م). أبوبطّة. الطبعة العاشرة. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــــ (١٩٧١م). مذكرات الارقش. الطبعة الخامسة. بيروت: مؤسسة نوفل للطباعة والنشر.

ـــــــــــــ (١٩٧٣م). أحاديث مع الصحافة. بيروت: أ. بدران وشركاه.

ـــــــــــــ (١٩٧٣م). يا ابن آدم. الطبعة الثانية. بيروت: مؤسسة نوفل.